

الملتقى الوطني حول

"إشكالية الهوية بين التأويل الإيديولوجي والفهم العقلاني"

27-28 نوفمبر 2018

جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية - قسم العلوم الإنسانية

عنوان المدخلة:

دور التصوف في المحافظة على الهوية الوطنية.

من إعداد:

أ- د عبد الرحمان تركي

السعيد مسعي محمد (طالب دكتوراه)

السنة الجامعية

1439 - 1440 هـ / 2018 - 2019 م

تهدف هذه الدراسة إلى تبيان ماهية التصوف الإسلامي وبيان الدور الريادي الذي قام به رجال الطرق الصوفية في الحركة الوطنية ، وثورة نوفمبر المجيدة، وتزامنا مع شهرين عظيمين شَاهَدَتْهُ الأمة الإسلامية والشعب الجزائري خاصة ألا وهو شهر نوفمبر وشهر مولد خير البرية سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وذكرى لاندلاع الثورة التحريرية وتمجيدها لشهادتنا الأبرار أردت في هذا اللقاء أن ألفت لمحة سريعة عن قيم التصوف الاجتماعية، والدور الإيجابي الذي لعبه رجال الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر أثناء فترة الاستعمار الغاشم من أجل التصدي ومقاومة الاحتلال الفرنسي الذي ابتليت به الأمة الجزائرية، كما أهدف من خلال طرح هذا الموضوع لإبراز دور التصوف والطرق الصوفية عموما والزاوية التجانية خاصة في غرس قيم المواطنة والتعايش الاجتماعي في المجتمعات مع المساهمة الفاعلة في تحقيق أمن وسلامة الوطن والمواطنة.

الكلمات المفتاحية: التصوف، الهوية الوطنية

Summary

This study aims to elucidate the nature of Islamic mysticism and to highlight the pioneering role played by Sufi figures in the national movement, including the glorious November Revolution. It coincides with two significant months witnessed by the Islamic nation and the Algerian people, namely the month of November and the month of the birth of the Prophet Muhammad (peace be upon him and his family). It also commemorates the outbreak of the Algerian liberation revolution and honors our righteous martyrs. In this context, I intend to provide a brief overview of the social values of Sufism and the positive role played by Sufi figures and zawiyas (Sufi lodges) in Algeria during the oppressive colonial period. Their aim was to resist and confront the French occupation that afflicted the Algerian nation. Furthermore, through this discussion, I aim to highlight the role of Sufism and Sufi paths in general, and specifically the Tijaniyya order, in instilling citizenship values and social cohesion in societies, while actively contributing to achieving national security and peace.

Keywords: Sufism, National Identity

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى

آله الهداة الطاهرين، وصحابته الغر المحجلين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

السيد رئيس الجلسة الدكتور مصطفى منصور

السيدات والسادة الحضور الأفاضل :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد :

إنه لمن دواعي المحبة والشرف العظيم أن نلتقي في هذه المناسبة الطيبة ، المتمثلة في : (الملتقى الوطني حول

إشكالية الهوية) ، على أن نعرج بمدخلتي عن ماهية التصوف الإسلامي وبيان الدور الريادي الذي قام به رجال

الطرق الصوفية في الحركة الوطنية ، وثورة نوفمبر الجيدة .

وتزامنا مع شهرين عظيمين شأهدهته الأمة الإسلامية والشعب الجزائري خاصة ألا وهو شهر نوفمبر وشهر مولد

خير البرية سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وذكرى لاندلاع الثورة التحريرية وتمجيدها لشهادتنا الأبرار أردت في

هذا اللقاء أن ألفت لمحة سريعة عن قيم التصوف الاجتماعية، والدور الإيجابي الذي لعبه رجال الطرق الصوفية والزوايا

بالجزائر أثناء فترة الاستعمار الغاشم من أجل التصدي ومقاومة الاحتلال الفرنسي الذي ابتليت به الأمة الجزائرية،

كما أهدف من خلال طرح هذا الموضوع لإبراز دور التصوف والطرق الصوفية عموما والزوايا التجانية خاصة في

غرس قيم المواطنة والتعايش الاجتماعي في المجتمعات مع المساهمة الفاعلة في تحقيق أمن وسلامة الوطن والمواطنة.

أولا: مفهوم التصوف والهوية الوطنية عند الصوفية.

- مفهوم التصوف.

يعرفه الشيخ أحمد التجاني بقوله: "التصوف امتثال الأمر واجتناب النهي في الظاهر والباطن من حيث يرضى لا من

حيث ترضى. "(1)

وقيل أن "الصوفية مذهب يدعو إلى تصفية النفس وتركيتها والتقرب إلى الله بالنوافل بعد اكتمال الفرائض

للحصول على محبة الله". "(2)

1- علي حراز بن علي براءة: جواهر المعاني وبلوغ الأماني، المطبعة العصرية، بيروت، ط:1؛ 2004م، ص194.

2- موسى عبد السلام أيبكن: الطريقة التجانية ودورها في نشر الثقافة العربية الإسلامية في نيجيريا، مجلة حوليات التراث، العدد 2014/14م، جامعة ولاية كوجي أينا، نيجيريا، ص28.

ويعرفه ابن عجيبة عن التصوف: " وهو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، أو تصفية البواطن من الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل، فأوله علم، ووسطه عمل، وآخره موهبة⁽¹⁾. وفي هذا نجد مبدأ التصوف وأصوله مقيد بالكتاب والسنة، يقول الجنيد البغدادي -رحمه الله تعالى-: "الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عَلَيْهِ الصلوة والسلام."⁽²⁾ ويقول الجنيد أيضاً: "من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر^(*)، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة."⁽³⁾ وقال سهل التستري رضي الله عنه: "أصول مذهبنا . يعني الصوفية . ثلاثة: الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في الأخلاق والأفعال، والأكل من الحلال، وإخلاص النية في جميع الأفعال"⁽⁴⁾ قال ابن خلدون: " هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أنّ طريقة هؤلاء القوم لم تنزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والرّهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذّة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عامّاً في الصحابة والسلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختصّ المقبلون على العبادة باسم الصّوفيّة والمتصوّفة."⁽⁵⁾

مفهوم الهوية:

الهوية هي: "مقدار ما يحققه الفرد من الوعي بالذات والتفرد والاستقلالية، وأنه ذو كيان متميز عن الآخرين، والإحساس بالتكامل الداخلي والتماثل والاستمرارية عبر الزمن، والتمسك بالمثاليات والقيم السائدة في ثقافته."⁽⁶⁾

-
- 1- عبد الله أحمد بن عجيبة: معراج الشوف إلى حقائق التصوف، تقديم وتحقيق عبد المجيد خيّالي، مركز التراث الثقافي المغربي الدار البيضاء، ص26، 25.
 - 2- أبو القاسم القشيري(ت465هـ): الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، 1409هـ/1979م، ص79.
 - *- أي التصوف .
 - 3- أبو القاسم القشيري(ت465هـ): الرسالة القشيرية، مرجع سابق ، ص80.
 - 4- ص51.
 - 5- عبد الرحمن بن خلدون(ت808هـ): تاريخ ابن خلدون، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار دار الفكر، بيروت، ط:1421هـ/2001م، ج1، ص611.
 - 6- فريال حمود: مستويات تشكل الثقافة الاجتماعية وعلاقتها بالمجالات المكونة لها لدى عينة من طلبة الصف الأول الثانوي من الجنسين، مجلة جامعة دمشق، كلية التربية، المجلد 27، ملحق 2011، ص561.

وقيل هي: "مجموع السمات الروحية والفكرية والعاطفية الخاصة التي تميز مجتمعاً بعينه وطرائق الحياة ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات وطرائق الإنتاج الاقتصادي والحقوق." (1)

- مفهوم الهوية الوطنية: "الهوية الوطنية في كل أمة هي الخصائص والسمات التي تتميز بها، وترجم روح الانتماء لدى أبنائها، ولها أهميتها في رفع شأن الأمم وتقدمها وازدهارها، وبدونها تفقد الأمم كل معاني وجودها واستقرارها، بل يستوي وجودها من عدمه، وهناك عناصر للهوية الوطنية لا بد من توفرها، وقد يختلف بعضها من أمة لأخرى." (2)

ثانياً: الهوية عند الصوفية.

تتمتع الحياة الروحية في الإسلام بفضائل قيم الجهاد في سبيل الله تعالى، وذلك بدليل قوله عز من قائل: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (3)، وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شُرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (4)، وفي هذا المنحى أرسى صلى الله عليه وآله وسلم معالم وقواعد أواصر العلاقة بين الحياة الروحية والحياة المادية للمسلم، ليكتمل الإيمان ويتحقق الإحسان، وفي هذا المضمار سار أصحاب التصوف ورجال الطرق الصوفية والزوايا على اختلاف مشاربهم ومناهجهم منتهجين نظم إستراتيجية لفلسفة الحياة، ولمواكبة الدين بالواقع المعاش ضمن قوالب وأسس شرعية ذات مبنى متين قائم على كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

كما تزخر الحياة الروحية في الإسلام بقيم ربانية ارتسمت على شاكلتها نظم التعايش الاجتماعي والوحدة الوطنية، عايشها رجال التصوف منذ أول وهلة التمسوا فيها منهج الحياة الروحية، وذلك بالتأسي الشديد الذي انطوت عليه قلوب العارفين من رجال التصوف في خدمة الأوطان بالنبي الأكرم لما اقتضت حكمة الله عز وجل في هجرته إلى المدينة المنورة حينما أخرجهم أهل مكة ظلماً وعدواناً، حيث صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه خاطب

1 - محمد عمر أحمد أبو عنزه: واقع إشكالية الهوية العربية: بين الأطروحات القومية والإسلامية، رسالة ماجستير، إشراف غازي الربابعة، قسم العلوم السياسية كلية

الآداب والعلوم، جامعة الشرق الأوسط، ص 36، 37.

2 - انظر موقع شبكة موضوع، <https://mawdoo3.com>

3- سورة النساء الآية 74.

4- سورة البقرة الآية 216.

مكة المكرمة فقال: "ما أطيبك من بلد ، وأحبك إليّ ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنتُ غيرك" (1)، وفي هذا يتضح لنا جليا أن من معالم قيم الإسلام ومبادئه السمحة حب الوطن ولم الشمل، ومن على هذا الصعيد نراه صلى الله عليه وآله وسلم أرسى معالم حب الوطن في النفوس وعلقها بالقلوب، ويغرس بذرته لتأتي أكلها كل حين بإذن ربها، وكما نراه صلى الله عليه وآله وسلم في مقام آخر يقول: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» (2)، وحينئذ اقتضى رجال التصوف هذا الأثر المبارك من العمل وجعلوه من ركائز دعوتهم في خدمة الدين والإسلام في هذا المضمار، كما أن المتصوفة ليس لهم سعي في الحياة الدنيا إلا ما كان يخدم مقتضى الكلمة المشرفة لا إله إلا الله محمد رسول الله، وما انطوت عليه من دلائل ومضامين، وفي هذا السياق كرس رجال التربية الروحية جل حياتهم فيما يحقق أهداف هذا العمل النبيل، لتطبيق مبادئ الإسلام والتحلي بقيمه، وهذا ما يندرج عنه حب الوطن والسعي الجاد في خدمته، ولا يتأتى ذلك إلا بالغيرة والدفاع عن الدين الإسلامي.

كما أن طبيعة التصوف يواكب مجرى الحياة الجهادية لنصرة الإسلام وأهله، وسيادة الحق في الظاهر والباطن وفق ضوابط المعايير الشرعية الروحية التي استمدت مناهجها من الكتاب والسنة، وفي هذا ارتسمت معالم الحياة لدى الصوفية في خدمة الدين والشريعة على الوجه المرتضى، يقول أبو الوفا التفتازاني: "ليس التصوف هروبا من واقع الحياة كما يقول خصومه، وإنما هو محاولة الإنسان للتسلح بقيم روحية جديدة، تعينه على مواجهة الحياة المادية، وتحقيق له التوازن النفسي حتى يواجه مصاعبها ومشكلاتها.

وفي التصوف الإسلامي من المبادئ الإيجابية ما يحقق تطور المجتمع إلى الأمام فمن ذلك أنه يؤكد على محاسبة الإنسان لنفسه باستمرار ليصحح أخطائها ويملأها بالفضائل، ويجعل فطرته إلى الحياة معتدلة، فلا يتهالك على شهواتها وينغمس في أسبابها إلى الحد الذي ينسى فيه نفسه وربّه، فيشقى شقاء لا حد له، والتصوف يجعل من هذه الحياة وسيلة لا غاية، وبذلك يتحرر تماما من شهواته وأهوائه بإرادة حرة. (3)

لقد ظلت العلاقة بين التصوف والدور الجهادي علاقة إيمانية، ومن ورائها مقاصد شرعية، قصها الشارع الحكيم وبينها في القرآن الكريم في أكثر من آية وموضع ، فكلاهما يخدم الآخر في ظل ما يخدم الحياة الإنسانية، ومن

1- رواه الترمذي ، الجامع الكبير ، تحقيق بشار عواد، أبواب المناقب، باب في فضل مكة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط:1، 1996م الحديث رقم 3926 ، المجلد 16، ص208.

2- رواه البخاري: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب ﴿إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، دار ابن كثير، دمشق، ط:1؛ 1423هـ/2002م، رقم الحديث 25، ص16.

3- حازم نايف طاهر أبو غزالة: مصطلحات الصوفية في التفسير الإشاري، ولبيه، أقوال كبار العلماء في التصوف، ص55، 54.

دوافع العلاقة ما انجرت على قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدْرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (1)، وفي ضوء هذا نجده صلى الله عليه وآله وسلم يربط الجهاد في سبيل الله بموكب الإيمان وعزة الإسلام، فعن ابن عمر، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَمَرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» (2)، وهنا تجدر الإشارة على أن القتال في سبيل الله - سبحانه تعالى - هو من الأدوات التي أرسى الله بها قواعد الإيمان في قلوب عباده المؤمنين، وشدَّ بها شرائع الدين والإسلام، فتعقيباً لذلك قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونََ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنَّهُمْ فَلَاعُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (3) والصحابة رضي الله عنهم يحرصون على نصرة هذا المبدأ في الإسلام، وتحقيق الإيمان ومقاصد القرآن، وبذلك سار الجهاد في سبيل الله تعالى عند المتصوفة منطلق إيمان لمن أحبه الله واصطفاه.

كما أن عمل المتصوفة لم يكن مقصوراً على الجانب النظري فحسب، بل كان يجسد القيم الروحية وتطبيقها على الواقع الاجتماعي (المجتمع)، وخير مثال على ذلك ما لعبته الطرق الصوفية في التصدي لحمالات التنصير والتبشير والمستعمرات الغربية سيما في القارة الإفريقية، وفي هذا لها دور ريادي في تنمية الروح الجهادية لنصرة الإسلام والوطن في تحرير الأوطان العربية وتنزيهها من الثقافة الغربية، التي شنّها العدو الغاشم لتهدم الهوية العربية والثقافية الإسلامية للشعوب المسلمة، ومن هذه الطرق الطريقة القادرية، والطريقة التجانية، والطريقة السنوسية.

إن المتصفح في سجل التاريخ الجزائري الثوري لرجال التصوف يجده مليئاً بالأحداث والمواقف الوطنية التي شهدت للصوفية عملهم الدعوى في تحرير النفس الإنسانية من مزلق وعثرات المستعمر الغاشم، حتى أن تغلغل التصوف في أجيال عديدة من الجزائريين جعل الإيمان الشعبي في هذه البلاد شديد الارتكاز على مبدأ تكريم الأولياء . وما تناثر المقامات المكعبة الشكل الثلجية البياض على قمم التلال والجبال التي يضاهاي عددها في مطلع قرننا الحادي والعشرين الأربعة آلاف وتسعمائة زاوية استناداً لمعطيات الإتحاد الوطني للزوايا الجزائرية إلا شهادة على حيوية هذا الإيمان، وما يدل على انصبغ كافة مرافق الحياة الاجتماعية، الاقتصادية، الثقافية والسياسية الجزائرية بالصبغة

1- سورة الأنفال الآية 65.

2- رواه البخاري: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب ﴿إِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، دار ابن كثير، دمشق، ط: 1؛ 1423 هـ/2002 م، رقم الحديث 25، ص 16.

3- سورة البقرة الآية 193.

الصوفية المرابطية، حتى يمكن القول أن تأريخ الجزائر الإسلامي هو تأريخ صوفي. وقياسا عليه نستلزم صوفانية حاضرها وارتسام معالم مستقبلها الروحي. إذ أن البيئة الصوفية هي التي كَيَّفَتْ نفسانية الفرد الجزائري على مر العصور وحددت معالم جوه الثقافي بمفهومه الشامل لطريقة الحياة وفلسفتها من أدب وسلوك وعمران⁽¹⁾.

لمحة تاريخية على جذور التصوف والطرق الصوفية.

تعد الحياة الروحية في الإسلام الجانب الأسمى الذي ركز عليه القرآن الكريم ودلت عليه السنة النبوية في تزكية النفس وتطهير القلب من الشوائب والفجور الأخلاقية، والمكدرات النفسية التي تعترى الإنسان حينما يغفل عن مبادئ الدين والشريعة، وذلك باعتباره الدافع الحقيقي لتلبية خطاب الشارع الحكيم في تطبيق شعائره، ومن هذا الباب فقد توسعت رقعة الإسلام في ربوع بقاع العالم لإنقاذ البشرية من ظلمات النفس ومخاطر أهوائها، إلى سعة رحمة الله تعالى ورحاب الإسلام والإيمان.

وتعتبر الطرق الصوفية بكل مقوماتها وأسسها ظاهرة دينية، ثقافية متعددة الأبعاد، نشأت في ظروف فكرية واجتماعية وسياسية معينة، أدت أدوارا تاريخية هامة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وتغلغت في جوانب عديدة من حياة المسلمين في عدة مجالات، تظهر تجليا في أشكال مختلفة، وفي جميع المناحي والمستويات: علمية، روحية، ثقافية، اجتماعية، سياسية.⁽²⁾

لقد ظهرت بوادر هذه الطرق منذ طلعت نشأتها الأولى في مدينة بغداد خلال القرن الرابع الهجري، وتمثلت في البداية في مجموعات من المريدين تتحلق حول شيخ مشهور بالعلم الشرعي والتقوى والورع، لتتربى على يديه، دون التزام بعهد أو ميثاق أو ارتباط تنظيمي، ومع مرور الزمن وانتشار وتعدد هذه المجموعات الحرة من السالكين بقيادة شيخ مرشد، ظهرت الطرق الصوفية كمؤسسات وهيئات لها نظامها الخاص وأساليبها الخاصة في التربية والتوجيه والإرشاد، وأصبح بعد ذلك لكل شيخ طريقته المستقلة.⁽³⁾

كما ساهمت الطرق الصوفية في الحياة الاجتماعية بأدوار كبيرة في عدة مجالات من ميادين الحياة، وعرفت كثيرا من التطورات، وصلت حد قيام الطريقة /الدولة: الطريقة الشاذلية بالجنوب التونسي والجنوب الجزائري، والطريقة السنوسية في ليبيا في القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين⁽⁴⁾.

1- زعيم خنشلاوي: تاريخ التصوف في الجزائر، مجلة البحوث العلمية والأكاديمية، ص218.

2- عبد المنعم قاسمي الحسني: الطريقة الخلوتية الرحمانية: الأصول والآثار منذ ظهورها إلى غاية الحرب العالمية الأولى، (رسالة دكتوراه في العلوم الإسلامية، تخصص عقيدة)، كلية العلوم الإسلامية، قسم العقائد والأديان، جامعة الجزائر، الجزائر، 2008-2009م، ص6.

3- المرجع نفسه، ص6.

4- المرجع نفسه، ص6.

ثالثا: الزوايا الجزائرية الحافظ الأمين على الفكر الصوفي والهوية الوطنية.

تعد الزوايا في الجزائر من أبرز المراكز الدينية والعلمية في خدمة الإسلام وشعائره باعتبارها الرائد والفاعل الأول للعلم والعمل والحفاظ الأمين على الفكر الصوفي والهوية الوطنية، واستقطبت الزوايا في بادئ تأسيسها مشايخ وأعلام ومريدين عبر مد تاريخ التصوف في الجزائر، وأن للزوايا والطرق الصوفية في الجزائر دورا كبيرا في نهضة الوعي الفكري والثقافي للشعب الجزائري أثناء فترة الاستعمار والاحتلال الفرنسي، وفي هذا كانت الزوايا قبيل الاحتلال منتشرة بكثرة في المدن كما في الأرياف، ولها مساهمة فعالة في تنشيط الحركة الفكرية والعلمية بالجزائر؛ باعتبارها من أهم المراكز والمؤسسات التعليمية، ولامتلاكها كنوز من الكتب والمخطوطات التي لا تقدر بثمن، وتعد الزوايا في تلك الفترة من أغنى المؤسسات بالبلاد، بفضل الأوقاف الكثيرة المحبسة عليها، والتي تضمن لها موارد ومداحيل كبيرة جداً هي عمادها وأساس نشاطها وحياتها. كما تحظى الزاوية باحترام ووقسية خاصة، باعتبارها من المؤسسات القائمة على تطبيق الشعائر والعبادات الإسلامية، ثم لأن مؤسسها أو القائمين عليها كانوا يتميزون بالتقوى والصلاح والسمعة الطيبة، وهو الأمر الذي أكسبها ثقة وزعامة روحية ودينية في الأوساط الشعبية، ولأجل ذلك كانت في بدايات الاحتلال راعية للمقاومة وحاملة لراية الجهاد المقدس.⁽¹⁾

لا يزال موضوع الزوايا والطرق الصوفية في معمورة البلاد العربية منذ نشأتها يكتسي أهمية كبيرة في الكثير من المجتمعات الإسلامية، ذلك أنها أدت دورا بارزا في تشكيل الهوية والمرجعية الدينية والحفاظ مقومات الشخصية الوطنية ووحدها، كما لا يمكن تجاهل دورها في تعزيز التماسك الديني والخلقي والاجتماعي، وفي حفظ المجتمع من تأثيرات الأخطار الكبرى، مما زاد من في شهرتها وثبات قيمها إلى الآن، فقد كان العديد من هذه الزوايا منطلقا لحركات الجهاد المسلح ضد الاستعمار في كثير من الدول الإسلامية لاسيما الجزائر، كمقاومة الأمير عبد القادر والشيخ الحداد والشيخ بوعمامة والمجاهدة فاطمة لالا نسومر⁽²⁾.

من أبرز الزوايا في الجزائر التي ساهمت في بدورها في مقاومة الاحتلال الفرنسي ما يلي:

1- زاوية الهامل الرحمانية ببوسعادة:

تعد زاوية الهامل الرحمانية ببوسعادة من أشهر زوايا الطرق الصوفية بالجزائر، لها تاريخها ونشاطها العلمي والثوري، ساهمت ولا تزال تساهم بدورها الفعال في المحافظة على الهوية العربية الدينية والوطنية منها، مع المحافظة على مقومات ومعالم الأمة الجزائرية، ويرجع تأسيس هذه الزاوية إلى سنة 1863م على يد الشيخ المريني محمد بن بلقاسم

1- لوصيف فوزية: الزوايا في الجزائر بين إرث التاريخ الاستعماري وضرورة الإصلاح والتجديد، قسم العقيدة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ص3.

2- وفاء بن عالية: دور زوايا توات في الحفاظ على الشخصية الوطنية والطرق الصوفية، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، ص228.

الهاملي⁽¹⁾ المولود سنة 1823م بمدينة الحامدية قريبا من حاسي ببح⁽²⁾، حيث "كان لزاوية الهامل دور جليل في حركة التنوير الديني والثقافي منذ تأسيسها، كما كان لها دور هام في الحفاظ على ثوابت الأمة الجزائرية التي عمل المستعمر على طمس معالمها العربية الإسلامية بكل ما أوتي من قوة. ولذلك وصفها المؤرخ أحمد توفيق المدني بأنها معقل للعروبة والإسلام."⁽³⁾

من مبادئ الزاوية :

- تحفيظ القرآن الكريم للصغار والكبار ونشر علوم العربية والعلوم الإسلامية.
- الاتصال الدائم بالأمير عبد القادر في منفاه وتلقي التوجيهات منه.
- تقديم العون المالي للاجئين من العلماء وطلاب العلم في كل من مصر والشام.
- تمتين روابط الصلة مع المجاهدين داخل الوطن أمثال الشيوخ: بلحداد، المقراني⁽⁴⁾، بوعزيز الماضوي، وغيرهم والتشاور معهم.

- الابتعاد عن الشبهات التي تمس مجد الوطن وكرامة الأمة.

- تباعد الزاوية كل البعد عن الخرافات والتدجيل والبدع والشعوذة.⁽⁵⁾ ،

كما لها دور كبير في المحافظة على الهوية الدينية، فقد ساهمت في نشر اللغة وتعليم القرآن وتخرير العلماء وطلبة العلم، وكان لها الفضل الكبير في إنشاء تنشئة اجتماعية قائمة على يدي شيوخها، وما كادت الزاوية سنة 1862 تحل حتى شرع الشيخ في بناء الزاوية، وبحلول سنة 1863م تم بناؤها بجميع مرافقها، وهكذا انتقل الشيخ بتلاميذه الذين تزيد عددهم حتى بلغ 140 طالبا، فاعتنت الزاوية بشؤونهم، وكان يدرس من كتب التفسير تفسير

1- هو أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن ربيع بن محمد وينتهي نسبه إلى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث اختلف في مولده منهم من قال سنة 1424هـ، الموافق 26 جويلية 1824م، ومنهم من قال سنة 1820م، وكان مسقط رأسه بالحامدية ولاية الجلفة، وهو ينتمي بذلك العترة الطيبة إلى آل البيت الطاهرين الذين دخلوا الجزائر في حوالي القرن السادس الهجري، كما تنتمي أسرة الشيخ محمد بن أبي القاسم إلى فريق أولاد سيدي علي ، أحد فرق شرفة الهامل ، نشأ على محبة العلم منذ نعومة أظفاره ولما بلغ سن التعلم أرسله والده إلى الكتاب، فحفظ القرن العظيم على يد محمد بن عبد القادر المعروف ب"كريش"، وفي سنة 1844م التحق بصوف المقاومة بجيش الأمير عبد القادر إلا أن هذا الأخير رفض، ورأى أنه من الأفضل له مواصلة تعلمه والقيام بحمة التعليم والإرشاد والتوجيه. انظر / عبد المنعم قاسمي: ترجمة مؤسس زاوية الهامل سيدي محمد أبي القاسم الهاملي، مدونة بن عزوز ، http://albordj.blogspot.com/2010/05/blog-post_3176.html ،

2- صلاح مؤيد العقي: الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، دار البراق، بيروت، ج2، ص380.

3- مفتاح عبد الباقي: أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية، تقدم محمد المأمون مصطفى القاسمي الحسني، دار الكتب العلمية، بيروت، ص217.

4- هو محمد المقراني بان أحمد المقراني المولود ما بين (1810-1820م)، بناحية مجانة بولاية برج بوعريش من أسرة كبيرة وعريقة عاشت منذ قرون في قلعة بني عباس وهي ذات مكانة سياسية بارزة قبل الاحتلال وحتى بعده، شاركت إلى جانب أحمد باي في صدد الغزو الفرنسي على قسنطينة سنة 1837م. انظر/ فرحاتي هالة: مقاومة المقراني والحداد 1871، رسالة ماستر في تخصص تاريخ معاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خير ، بسكرة الجزائر، 2014/2015م، ص25.

5- المرجع نفسه، ص219.

الواحدي، ومن كتب الحديث شرح العارف بالله عبد الله بن أبي حمزة، وكانت حلقة دروسه في الفقه المالكي تضم أكثر من 80 طالبا، وبعد تزايد الطلبة استعان الشيخ ببعض المساعدين، وكان منهم الشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي، والشيخ عاشور الخنفي، وبعد وفاة الشيخ أشرف على تسيير الزاوية أعلام آخرون.⁽¹⁾

وفي السياق العلمي والثقافي تملك الزاوية مكتبة كبيرة لطلاب العلم والباحثين، وفقد ضمت حوالي 5000 مجلد مخطوط في كل العلوم والفنون غير أن جزءا كبيرا منها تعرض للتلف والنهب جراء فتن ومكائد جنود المستعمر الفرنسي بحثا عن المجاهدين أو عن الوثائق التي تمس الثورة والمناضلين، فلم يبق منها سوى 200 مجلد مخطوط بالإضافة إلى بعض المراسلات والوثائق المتعلقة بثورة كل من الأمير عبد القادر والمقراني، وبعض المراسلات التي كانت بين شيوخ الزاوية وعلماء الزيتونة والقرويين والأزهر الشريف.⁽²⁾

لقد عمل شيوخ الزاوية بكل ما يسعون من قوة مادية ومعنوية في نصرته الحق والبلاد ضد الاحتلال الفرنسي، حيث شحن رجال الزاوية نفوس الطلبة والهابة الروح الثورية والوطنية فيهم، كما أثر هذا السعي فيما بعد على خريجي الزاوية وطلبتها الذين التحقوا بالثورة، وقد ساهم رجال زاوية الهامل في المشاركة ضد المستعمر الفرنسي في عدة معارك ثورية منها:

1- معركة درمل بقيادة عاشور زيان وقعت في اواخر شهر ديسمبر 1955⁽³⁾:

2- معركة الزرقاء بجبل مساعد بجنوب الهامل في 02 فيفري 1957م⁽⁴⁾.

3- معركة جبل النسياسة في 9 جوان 1957م بقيادة المخلوف بن قسيم⁽⁵⁾.

وبالإضافة إلى هذه المعارك، فقد شاركت الزاوية الرحمانية عدة ثورات وهذا ما يدل على إسهامات رجال التصوف في المحافظة على الهوية الوطنية والدينية، والمحافظة على كرامة الأمة، ومنها:

1- ثورة الحاج عمر، وتعد زاوية محمد بن عبد الرحمان في ذراع الميزان هي الأخرى كغيرها من الزوايا الجزائرية، كما أدت بدورها الحركي الفعال إلى التصدي للغزو والاحتلال الفرنسي، إذ تزعم الحاج عمر عام 1851م حركة ثورية ضد القوات الفرنسية، وفي عام 1854م عين بدوره مقدا لمؤسس الزاوية، وكان خصائصه شديد الحيوية والنشاط،

1- صلاح مؤيد العتيبي: الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، مرجع سابق، ص 381، 382، 383.

2- المرجع نفسه، ص 219.

3- نسمة قديدة: موقف الطريقة الرحمانية من الاحتلال الفرنسي زاوية الهامل ببوسعادة 1863-1962 أنموذجا، مذكرة ماستر تخصص تاريخ معاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، تاريخ 2013/2014م ص 97.

4- المرجع نفسه، ص 98.

5- المرجع نفسه، ص 98.

وكان ميوله إلى تأييد الثوار أثناء ثورة الشريف بويغلة، واعتصم بالمناطق الجبلية الحصينة قرب الزاوية حتى أرغمته القوات الفرنسية على الاستسلام وكان ذلك يوم 14 نوفمبر 1851م في بني كوي بآيت إسماعيل. (1)

2- ثورة لالا فاطمة نسومر، ولدت لالا فاطمة بقرية ورجة سنة 1830م وترت ونشأة دينية ، ولما سمحت لها الظروف انضمت إلى المقاومة حيث شاركت هي الأخرى بجانب بويغلة في المقاومة والدفاع عن منطقة جرجرة، وفي صد هجومات الاستعمار على أربعاء ناث إيراثن فقطعت عليه طريق المواصلات، ولهذا انظم إليها عدد من قادة الأعراش وشيوخ الزوايا والقرى، ومن بين أشهر المعارك الثورية التي قادتها لالا فاطمة نسومر هي تلك المعركة التي خاضتها إلى جانب الشريف بويغلة (محمد بن عبد الله) في مواجهة والتصدي للجيش الفرنسي بقيادة الجنرال روندون وماك ماهون، وقد حققت انتصارات كبيرة ضد العدو بنواحي يلاتن والأربعاء وتخلجت وعين تاوريغ وتويريرت موسى، مما أدى بالقوات الفرنسية إلى الاستنجاد بقوات جديدة وعتاد حديث، اضطرت على إثرها فاطمة نسومر إلى إعطاء الأوامر بالانسحاب لقواتها إلى قرية تاخليجت ناث عيسو، لاسيما بعد إتباع قوات الاحتلال أسلوب التدمير والإبادة الجماعية بقتل كل أفراد العائلات دون تمييز ولا رحمة. (2)

3- ثورة الشيخ بن جار الله، واندلعت في يوم 30 ماي 1879م. (3)

4- ثورة الهاشمي بن علي دردور، ويعد من زعماء الجهاد في الجزائر وكبار رجال الطريقة الرحمانية، وإليه تنسب الطريقة الدردورية إحدى فروع الطريقة الرحمانية، ولد سنة 1815م بمرونة بمنطقة وادي عبدي في قلب الأوراس بالشرق الجزائري، حيث شارك في انتفاضة الأوراس بإخوانه ومريديه ضد الاحتلال الفرنسي وكان ذلك سنة 1879م مما أدى بالسلطات الفرنسية إلى نفيه إلى جزيرة كورسيا سنة 1880م، ثم عاد إلى الوطن وواصل مهمته التعليمية وجهاده الثوري لتحرير البلاد إلى أن وافاه الأجل عام 1899م عن عمر يناهز الخامس والثمانين. (4)

ومن خلال هذه اللفتة الوجيزة يظهر لنا جليا أن الزاوية الرحمانية كان لها دور ريادي في المشاركة الفاعلة في الثورة والمحافظة على الهوية الدينية المتمثلة في تعليم القرآن الكريم والسنة النبوية ومبادئ الإسلام وتعليم اللغة العربية، والمحافظة على الهوية الوطنية من الدفاع عن الوطن والشخصية الوطنية وتعزيز وصيانة كرامة الأمة الجزائرية.

1- عبد المنعم قاسم الحسني: دور الزوايا والطرق الدينية في محاربة الاحتلال الفرنسي في الجزائر ، مدونة بن عزوز، تاريخ الأخذ: 2018/11/24م

<http://albordj.blogspot.com>

2- المرجع نفسه <http://albordj.blogspot.com>

3- المرجع نفسه <http://albordj.blogspot.com>

4- المرجع نفسه <http://albordj.blogspot.com>

2- الزاوية التجانية بتماسين:

تعد الطريقة التجانية من أبرز الطرق الصوفية في العالم لها تاريخها معالمها الدينية والوطنية على مد تاريخها ونضالها الحافل بخصال المودة والرحمة بين الناس في وقت تداعت وتضاربت فيه الظروف الاجتماعية وتضافرت فيه الحركات الإسلامية على اختلاف أشكالها، فكانت الطرق الصوفية السبّاقة في المشاركة الثورية ضد الاحتلال باعتبارها الحصن المانع والجدار الواقي للشعب الجزائري للحفاظ على الهوية الدينية والوطنية لمزالق مخاطر الاحتلال، فقد ساهمت في العديد من المواقف الوطنية على الصعيد المحلي والدولية، ولها "دور هام في تماسك المجتمعات وفك الخصومات ونشر القيم الفاضلة؛ فقد ساهم التجانيون في الإصلاح، وبث روح المحبة التعايش والتسامح والتزاور والاحترام وقضاء الحوائج، فالمقدمون والمريدون الذين هم خلفاء شيخهم المؤسس وخلفائه في مناطقهم من واجبهم أن يُبلّغوا ما يدعون إليه ويجسدونه في الواقع. على هذا المبدأ العظيم ربّي الشيخ التّجاني أصحابه وأتباعه، فكانوا رسل محبة وسلام وإحسان، فساهموا في إخماد نيران الفتن والقضاء على النزعات في أماكن مختلفة، وإرساء الأمن والسّلم."⁽¹⁾

أولا - التعريف بالزاوية التجانية بتماسين:

تعد الطريقة التجانية من أبرز الطرق الصوفية في العالم، لها تاريخها ومعالمها الدينية والوطنية، تنحدر من بلد الجزائر، حيث "تستمد منهاجها السلوكي في التربية من الكتاب والسنة، وتسميتها نسبة لمؤسسها الشيخ سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه، سليل بيت النبوة، وهو أشهر شخصية صوفية جزائرية، وأعظمها أثرا في العالم منذ ما يزيد على قرنين، فأتباعه اليوم موجودون في الكثير من الدول، ويُعدّون بمئات الملايين. ويحمل أتباعه هاته الطريقة شعار العلم والعمل والعبادة، والسلم والسلام إلاّ إذا تعلق الأمر باعتداء أجنبي كالذي شهده وطننا سنة 1830م، حينها كان لرجال الطريقة وقفة حامي حمى الدين والوطن والأمة"⁽²⁾. وتضم الطريقة التجانية عدة زوايا في القطر الجزائري، ومنها الزاوية التجانية بتماسين، وهذه الأخيرة من إحدى الزوايا الكبرى للطريقة التجانية في العالم، وهي بلدية ودائرة من ولاية ورقلة بالجمهورية الجزائرية، تقع على بعد حوالي 12 كلم من مدينة تقرت، وعن الجزائر العاصمة بحوالي 630 كلم.

1- علي زيتونة: محاضرة بعنوان: دور الطريقة التجانية في الوسطية ونشر السلم والأمن، الملتقى حول الوسطية في الغرب الإسلامي وأثرها في نشر الإسلام في إفريقيا وأوروبا، جامعة الوادي، ص 18.

2- عبد الكامل التجاني: محاضرة بعنوان: دور التجانية في الثورة التحريرية بالجزائر، موقع نفحات 7، تاريخ الأخذ: 2018/11/17م،

<http://www.nafahat7.net>

تتواجد الزاوية التجانية بجنوب تماسين في منطقة تسمى تملاحت وقد أسسها خليفة الأول سيدنا ومولانا الحاج علي التماسيني بأمر من مولانا الشيخ الأكبر رضي الله عنهما، ويرجع تاريخ افتتاحها إلى سنة 1220هـ / 1805م.⁽¹⁾

كما شهدت زاوية تماسين حركة معمارية كبيرة متعاقبة من خليفة إلى خليفة، وهذا منذ إذن الشيخ الأكبر لخليفته التماسيني بالتربية وتأسيس زاويته عام 1217 هـ / 1803م، والزاوية تزداد توسعا يوما بعد يوم نظرا للمتطلبات الظرفية والتاريخية سواء من حيث مادة البناء، أو الشكل المعماري، كزيادة الأبنية بزيادة الوافدين عليها، وكل خليفة له بصماته في هذا المجال. والشيخ سيدي محمد البشير الثاني كغيره من الخلفاء قام ببناء وتجديد الشطر الأول من الزاوية التي تصدعت بفعل العوارض المناخية وقد تم افتتاحها يوم الخميس 14 ذي القعدة 1413هـ / 06 ماي 1993 وبعدها واصل بناء زاويتي الوادي وبسكرة. إلى أن انتهت في الوقت الحاضر بتجديد مقرها الرئيسي على يد الخليفة الحالي الشيخ سيدي محمد العيد التجاني وقد جعل هذا المقر يحتوي على جناح ثقافي يواكب العصر وسوف يكون - إن شاء الله تعالى - مركز إشعاع فكري ومنطلق حضاري⁽²⁾.

الدور النضالي للزاوية التجانية بتماسين:

لقد لعبت الزاوية دورا كبيرا في التصدي للاحتلال الفرنسي بكل ما تملكه من قوة مادية ومعنوية، فقد جندت الزاوية رجالها في صفوف الثورة التحريرية المجيدة، فقام الخليفة الشيخ سيدي أحمد التجاني التماسيني بدور رئيس لإحباط مخطط فصل الصحراء عن الجزائر. جريدة المجاهد بتاريخ 12 جانفي 1962. بمعية أبناء أسرته الأبطال وعلى سبيل المثال الشيخ الراحل سيدنا محمد البشير التجاني، والمغفور له سيدي محمد بن علي المعروف (بسيدي حمه) وسيدي محي الدين الينبعي بن سيدي العيد وسيدي محمد الطيب التجاني بن الشيخ سيدي أحمد، ومقدميه الذين ضحوا بما يملكون ومن بينهم شهداء كثيرون منهم سي أحمد بن سيدي العيد بن سالم التجاني، وحمي بالقاسم، والطاهر التجيني... الخ.

كما ساندت الزاوية التجانية الحركة الوطنية بمساهمتها الفعالة في ثورة التحرير الوطني. وهذا أمر معروف مفصّل

في كتب التاريخ⁽³⁾.

1- موقع الطريقة التجانية تاريخ الأخذ 18 ربيع الأول 1440 هـ الموافق لـ 25 نونبر 2018 رابط الموضوع: <http://www.tidjania.fr>

2- المرجع نفسه، <http://www.tidjania.fr>

3- موقع الطريقة التجانية تاريخ الأخذ 18 ربيع الأول 1440 هـ الموافق لـ 25 نونبر 2018 رابط الموضوع: <http://www.tidjania.fr>

ولقد تعددت مظاهر وصور المشاركة في المقاومة للتجانين تجاه الاحتلال الفرنسي، يقول الأستاذ عبد الكامل التجاني⁽¹⁾: "ومن صور المقاومة ، دور الزاوية التجانية وشيوخها الرائدین ضد حملات التغيير والمسح ، والوقفة الثابتة دفاعا عن هوية الأمة ، والدارس للتاريخ يجد باقات تجسد صورا رائعة للمقاومة في مجال تحصين العقيدة ، فكانت الطريقة في الخندق الأول تحفيظا للقرآن الكريم ، ونشرا للسنة المطهرة ، وحفظهما في الصدور ، وترسيخهما في النفوس ، وطبع حب الوطن في القلوب ، وإعداد المجتمع للتصدي للمحتل ، بأبعادها التربوية ، كفتح المدارس لتعليم اللغة العربية ، وفي الأبعاد الاجتماعية بإحداث اللحمة والتفطن لما يدبره المحتل في نشر سياسة فرق تسد ، وأبعادها الثقافية بالحفاظ على تراث الأمة ، وعاداتها وتقاليدها."⁽²⁾

ومن المواقف السياسية الرائدة ضد الاحتلال⁽³⁾:

أ . مضايقة سلطات الاحتلال بالبَيْضُ لمقدمي الطريقة بالمنطقة ، ومداهمة بيوتهم ، ومصادرة كتاب " الجامع " لدى المقدم ابن مزهود في 15 ماي 1880 ببلدة الغاسول ، كل ذلك من أجل مواقفهم ضد الإستعمار.

ب . وقوف مقدم الطريقة التجانية بالعاصمة ، العلامة الشيخ سيدي عبد الحليم بن سُمَايَه ضد التجنيد الإجباري ، وإصداره الفتوى المعروفة التي نهت أبناء الأمة وأغضبت السلطات الفرنسية .

ج . ومن الأدوار المتميزة التي قام بها أحد رجال الطريقة بالعاصمة ، وهو عمر بن قدور الجزائري ، رائد الصحافة الوطنية ، إصداره جريدة « الفاروق » ، وعدة مقالات أتحف بها الصحف العربية مشرقا ومغربا ، والتي كانت سببا لنفيه إلى الأغواط حيث أَلَّف كتابه المشهور « سائق السعادة ». وجاء في كتاب بِنَجْمَان اسْطُورَا، وعنوانه « مصالي الحاج رائد الوطنية الجزائرية » بأن هذا الأخير في تكوينه السياسي ، تأثر كثيرا بأفكار المغفور له المقدم سيدي الطاهر بوطيبة وكيل الزاوية التجانية بتلمسان ، الذي كان يغذي الروح الوطنية ، داعيا لمقاطعة المحتلّ والخونة ، وعدم التعامل معهم ، واتباع السبيل الذي رسمه القرآن . كما أنّ هذا الرصد التاريخي جاء في كتاب محمد حربي، « 1954 الحرب تبدأ في الجزائر ». والجدير بالذكر ، أنّ سيدي الطاهر بوطيبة تعرض لاضطهاد كبير من سلطات الاحتلال نظرا لمواقفه الوطنية المقدمة ، وأبعدَ إلى جزيرة « سانت مرغريت » ومعه تجانيون آخرون منهم كاتبه ، وذلك ما بين

1- هو الشيخ عبد المالك التجاني المدعو عبد الكامل بن المقدم سيدي العيد بن يامة، وهو من أعلام الزاوية التجانية بالبيضاء- وادي سوف، تقلد عدة مناصب في الدولة، وهو الآن مقدم الزاوية التجانية بالبيضاء ولاية الوادي.

2- عبد الكامل التجاني: محاضرة بعنوان: دور التجانية في الثورة التحريرية بالجزائر، موقع نفاحات 7، تاريخ الأخذ: 2018/11/17م، <http://www.nafahat7.net>

3- عبد الكامل التجاني: محاضرة بعنوان: دور التجانية في الثورة التحريرية بالجزائر، موقع نفاحات 7، تاريخ الأخذ: 2018/11/17م، <http://www.nafahat7.net>

(1863 . 1871) ، وتضيف المراجع التاريخية أنه أثناء الإبعاد تدهورت صحته إلى أن فقد بصره ، أما الدور الثقافي الرائد ، فكان يتمثل في الدروس التي كانت تُلقى في الزاويتين الكبيرتين للطريقة التجانية بعين ماضي وبتماسين ضد الاحتلال واغتصابه للبلاد ، والدعوة لوحدة الصف وترسيخ الشعور بالانتماء للوطن والدفاع عنه.

هكذا كانت الزاوية التجانية تضمّ رجال جهادٍ ومقاومة في الفترة التي سبقت اندلاع الثورة ، وكان نشاطها ضد الاحتلال يشمل عدة مسارات :

1 . نجد الشيخ سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه ، أحد خلفاء ديار تماسين ، يساهم ماديا ، ويشجع جمعية العلماء المسلمين من أجل تعليم النشء . قاله مباشرة إلى البشير الإبراهيمي ، أو عن طريق الصخري الحاج شاوي ، تاجر ببسكرة .

ورغم مواقف عدد من كوادر الجمعية من التصوف ، وامتناع بعض أبناء الزاوية من هاته المواقف ، إلا أنّ الشيخ كان يدعو لوحدة صف الجزائريين ضد الاحتلال. ⁽¹⁾

رابعا: الشيخ أحمد التجاني التماسيني وأعماله في ترسيخ الهوية والوطنية.

1- التعريف بالشيخ أحمد التجاني التماسيني:

يعد الشيخ أحمد التجاني التماسيني من أبرز أعلام وخلفاء الزاوية التجانية بتماسين، فهو الشيخ بن الشيخ محمد بن الشيخ محمد العيد بن الإمام سيدي الحاج على التماسيني، ولد الشيخ أحمد التجاني التماسيني يوم 22 ماي 1898م بضواحي مدينة الرقيبة التابعة لولاية الوادي- الجزائر، حيث تربى وترعرعت طفولته فيها، وكانت له عناية خاصة من والده الشيخ(سيدي حمه) حيث حفظ القرآن الكريم على رواية ورش وهو في سن لا يتجاوز 12 عاما، وحصل العلوم الشرعية من فقه وتفسير وحديث وتصوف، والعلوم اللغوية من أدب وشعر ولغة وبلاغة وتاريخ ومنطق بمدرسة الزاوية على يد علماء كبار وفقهاء درسوا في زاوية تماسين وقمار، كما تعلم اللغة الفرنسية على يدي الأستاذ عبد القادر بن البشير بن الهادي السوفي ⁽²⁾.

ولقد عاصر الشيخ أحمد التجاني التماسيني العديد من الأحداث العالمية والوطنية منها الحرب العالمية الأولى والثانية، وتشكيل أحزاب الحركة الوطنية، ومجازر 08 ماي، واندلاع الثورة التحريرية المجيدة، واستقلال الجزائر،

1- عبد الكامل التجاني: محاضرة بعنوان: دور التجانية في الثورة التحريرية بالجزائر، موقع نفحات 7، تاريخ الأخذ: 2018/11/17م،

<http://www.nafahat7.net>

2- محمد رشدي جرابية: دور الشيخ أحمد التجاني التماسيني في الحفاظ على وحدة التراب الوطني الجزائري، محاضرات اليوم الدراسي بعنوان الطريقة التجانية ودورها في مواجهة التغريب، وتحصين الأمة المنعقد يوم 2016/11/26م بيليزي.

وبناء الدولة الجزائرية الحديثة، حيث كانت له في هذا المضمار أعمال جليلة في ترسيخ الهوية الإسلامية والوطنية الجزائرية.

ولقد جرت سنة الله - سبحانه تعالى - في وفاة والده الشيخ (سيدي حمه) وكان ذلك سنة 1912م وعمره 14 سنة، وتولى أمر الزاوية أخاه محمد البشير الذي توفي سنة 1918م، فخلفه ابنه الشيخ محمد العيد بن الشيخ البشير وعمر الشيخ أحمد حوالي 20 سنة، وعند وفاته سنة 1927م اعتلى الخلافة من بعده الشيخ أحمد التجاني بن محمد آنذاك وعمره 29 سنة، حيث بويع بالخلافة في 25 أكتوبر 1927م⁽¹⁾.

اعتنت زاوية تماسين من مطلع فجرها وتأسيسها على يدي الأمام سيدي الحاج علي التماسيني رضي الله عنهم بقضايا التربية الروحية والتعليم القرآني، والعلوم الشرعية من حديث وفقه وتفسير، حيث استقطبت الزاوية في عهد مؤسسها بجلب عدد من العلماء والمدرسين من وادي سوف والمغرب وشنقيط وغيرها وكان يوصي دوما بالعلم والتعلم قولاً وفعلاً، وذلك بدليل مقولته الشهيرة: عليكم باللويجة والمسيحة والسيحة حتى تخرج الرويحة⁽²⁾.
وتماشياً مع صيرورة هذا المنهج الرياني في العلم والتعليم فقد أولى اهتمامه رضي الله عنه في مواكبة الحياة العلمية فقد واصل الشيخ أحمد التجاني الحركة العلمية والجلسات الثقافية والدروس التنويرية بالزاوية التجانية بتماسين، كما واصل أيضاً النهضة الفكرية التي بدأها الخليفة الذي قبله الشيخ محمد العيد غير أن هذه الحركة العلمية كانت تسير على حسب كل زمان، وهذا عملاً بقول مؤسس الطريقة الشيخ الأكبر أحمد التجاني: "بسير زمانك سر"، وهذه النهضة العلمية والثقافية من خلال مجالس التعليم والتدريس، وشملت تحفيظ القرآن والحديث النبوي والسيرة النبوية، والفقه المالكي والأدب العربي، ومبادئ الفكر الصوفي، على يد العديد من العلماء الكبار⁽³⁾.

2- دعم الشيخ أحمد التجاني التماسيني للثورة التحريرية:

لقد ساند الشيخ أحمد التجاني العمل الثوري ضد الاحتلال الفرنسي مع إخوته المناضلين، جاهدين بأموالهم وأنفسهم في التصدي للمستعمر الفرنسي دعماً للوطن وحفاظاً على الهوية العربية الإسلامية والوطنية، فقد كان فكر الشيخ يرمي بعيداً وينظر بحكمة بالغة وبصيرة قوية في التخطيط الذي ينوي إليه المستعمر الغاشم في الشعب

1- محمد رشدي جراية: دور الشيخ أحمد التجاني التماسيني في الحفاظ على وحدة التراب الوطني الجزائري، محاضرات اليوم الدراسي بعنوان الطريقة التجانية ودورها في مواجهة التغريب، وتحصين الأمة المنعقد يوم 2016/11/26م باليزي..

2- محمد بشير طهراوي: الشيخ أحمد التجاني التماسيني حياته ونضاله (1898-1962)، مذكرة تخرج مكملة النيل شهادة الليسانس في التاريخ، جامعة الوادي، الجزائر، ص54.

3- المرجع نفسه، ص55، 54.

الجزائري، فكان يحرص كل الحرص على تفشي روح التعليم والتربية الروحية من تعليم القرآن واللغة العربية، بإضافة إلى الآليات المادية التي دعم بها الثورة الجزائرية⁽¹⁾، ولما اندلعت الثورة التحريرية سنة 1954م اتصل زعماء وعمداء الثورة بشيوخ زاوية عين ماضي، وزاوية تماسين، واتفقوا على التعاون الخفي، وفي هذا نرى أن الدعم الذي قامت به الطريقة التجانية للثورة كان يغلب عليها السرية والكتمان⁽²⁾.

وهنا لا بد من لفظة انتباه " إنَّ أغلب الكبار من أبناء الزاوية كانوا على علم بتواجد المجاهدين ، ولم تتسرّب أيّ معلومات للعدوّ عنهم ، وهذا دليل جليّ على تجنّد أفراد الأسرة التجانية بتماسين بقيادة الشيخ رضي الله عنه خدمة للثورة . والجدير بالذكر ، أن الزاوية كانت تحت الرقابة ، وقد تعرّضت لحصار المظليين يوم 15 ماي 1958م. كما أنّ شيخ الزاوية التجانية رضي الله عنه في اجتماعاته السريّة مع أفراد الزاوية ومقدّمي الطريقة ، كان يوصيهم بمواصلة العمل الثوري ضدّ الاحتلال ، وكان يساعده في ذلك أبناء الزاوية "⁽³⁾

ولما انقسمت الجزائر أثناء الاجتماع التحضيري لاندلاع الثورة التحريرية إلى خمس ولايات، كانت الصحراء من حظ ونصيب الولاية الأولى التاريخية؛ أي الأوراس (الناممشة)، وقائدها الشهيد مصطفى بن بولعيد⁽⁴⁾. وعندما أقبل اندلاع ثورة نوفمبر لم يكن الناس على علم وتفاصيل أحداثها ومحرياتها، ولكن بدأت الاتصالات تتم بين الناس بغية تبليغ الناس أصداء الثورة وتوضيح أهدافها، وكان أول اتصال بالجهة بين الثورة وتقرت في شهر جانفي 1955م عن طريق رسالة بعثها الشهيد مصطفى بن بولعيد -أحد رموز الثورة الجزائرية- إلى الشيخ أحمد التجاني التماسيني يطلب فيها تقديم يد المساعدة والإعانة بالمال والسلاح والسعي إلى تنظيم خلية ثورية بمنطقة وادي ريغ، فقبل الشيخ الطلب وحظي بالقبول ، ثم ازدادت الاتصالات بعد ذلك من ناحية وادي سوف بواسطة العربي قمودي -أحد رموز الثورة بوادي سوف- ومن أولاد جلال بواسطة أحمد جاري، وهذا ما يُن أن الشيخ أحمد التجاني التماسيني كان من أوائل الزمرة التحريرية للبلاد، وكان له الفضل الكبير في تجنيد شباب تقرت في ثورة التحرير، وفي

1- محمد رشدي جرابية: دور الشيخ أحمد التجاني التماسيني في الحفاظ على وحدة التراب الوطني الجزائري، محاضرات اليوم الدراسي بعنوان الطريقة التجانية ودورها في مواجهة التغريب، وتحصين الأمة المنعقد يوم 2016/11/26م بيليزي.

2- محمد بشير طهراوي: الشيخ أحمد التجاني التماسيني حياته ونضاله(1898-1962)، مرجع السابق، ص100.

3- عبد المالك التجاني: دور التجانية في الثورة التحريرية بالجزائر، مرجع سابق.

4- المرجع السابق، ص101.

هذا نتساءل لماذا لم يرسل ابن بولعيد إلى أحد غير الشيخ أحمد التجاني التماسيني؟ وفيها دليل واضح على معرفته به وبصدق توجهه تجاه الثورة⁽¹⁾.

وعندما جاء سي الحواس بالمغير في شهر ديسمبر 1955م للاجتماع بمجاهدي وادي ريغ حين اجتمعوا في دار الشيخ عبد الحميد حبه كان الشيخ أحمد التجاني التماسيني أحد الأعيان الحاضرين لهذا الاجتماع واللقاء التاريخي برئاسة سي الحواس حين كوّن خلال هذا الاجتماع اللجان الثورية، ويتضح من خلال هذا اللقاء الاتجاه الوطني للشيخ حين كلف باستدعاء رجال الإدارة الفرنسية من أهالي وادي ريغ بحضور هذا اللقاء وإحضارهم معه؛ لأنهم كانوا يحترمونه حيث نصبهم سي الحواس رؤساء للجان الثورية وهو عمل يعد فريد من نوعه أن يكون القياد حراسا للثورة في بادئ أمرها⁽²⁾.

كما ساند الشيخ أحمد التجاني التماسيني سي الحواسي بالدعم المالي وذلك عند اللقاءات التي تقدر بينهم، فقد دعم الشيخ بالاشتراكات والنقود والأموال الضخمة التي ترسل إلى الولاية السادسة أو جيش الحدود ، وهناك دعم مادي آخر من نوعه من أسحلة وعتاد ومؤونة وألبسة وأدوية وغيرها، ولم يكن الدعم مقصورا على هذا فحسب بل تعدى إلى غير ذلك من التكفل ماديا ببعض عائلات المجاهدين والشهداء، كما أن الشيخ زاد من دعمه بتسخير الرجال حيث سخر وجند أبناء زاويته بل وحتى أتباع طريقته، في كل من وادي ريغ ووادي سوف لخدمة الثورة التحريرية، وهناك دعم آخر تمثل في إعطاء المشورة والنصح للمجاهدين وحتى القادة في الجهة⁽³⁾.

ومن صور ومظاهر الدعم الذي قدمه الشيخ للثورة إخبار المجاهدين لما يدور بين الفرنسيين من أخبار وما يتحدد من أنباء خاصة ما يهم الثورة من مدهمات أو اكتشاف أسرار أو محاولة القبض على المجاهدين،... إلخ كما نشاهده رضي الله عنه يدعم الثورة بتكليف أتباعه وتأمين سير الطريق والمسالك للمجاهدين، وقد فتح زاويته بتماسين للمواطنين والمجاهدين وفتح كل الزوايا التجانية التابعة له مثل زاوية بسكرة، وزاوية قمار، وزاوية البياضة، وزاوية تغزوت، وزاوية الوادي ، وزاوية كونين، وكذلك الزوايا خارج بلد الجزائر، كزوايا تونس مثل زاوية توزر ، وزاويتي باب المنارة وطرنجة بتونس العاصمة ، واستمر هذا الفتح حتى بيوته الخاصة في كل من قسنطينة وسدراتة وعين البضاء وتونس⁽⁴⁾.

1- المرجع السابق، ص 101 ، 102.

2- محمد رشدي جرایة: دور الشيخ أحمد التجاني التماسيني في الحفاظ على وحدة التراب الوطني الجزائري، مرجع سابق.

3- المرجع نفسه.

4- المرجع السابق.

3- دور الشيخ أحمد التجاني في الحفاظ على الوحدة الترابية في الجزائر:

إن محاولة فصل الصحراء عن الشمال من أبرز الغايات المنشودة التي تسعى إلى تحقيقها فرنسا وقيادتها، بكل ما أتاحت من قوة ومال وسلطة، وهذا نظرا لأطماع ذات أبعاد اقتصادية وسياسية تخدم مصالح السلطة الفرنسية، وجاء هذا بعدما اقتنعت بحق الشعب الجزائري في تحقيق مصيره، ويتضح ذلك من خلال التصريح الذي ألقاه القائد الفرنسي ديغول بتاريخ: 16/09/1995م حيث قال:

باسم فرنسا وباسم الجمهورية ونظرا لسلطات التي حولها الدستور في استشارة المواطنين فيني أتعهد إن بقيت حيا، واستجابة لنداء الوطن أن أطلب الجزائريين في عمالاتهم الإثني عشر أن يعبروا كما يرون كما أطلب من الفرنسيين أن يصفقوا على ذلك الاختيار⁽¹⁾.

ولقد استوعبت السلطة الفرنسية خطة إستراتيجية لفصل الصحراء الجزائرية، حيث اعتمدت السياسة الفرنسية الرامية لفصل الصحراء في عهد الجمهورية الخامسة على ثلاثة محاور أساسية وهي كالتالي:

المحور الأول: الخطة الاقتصادية لاستغلال الثروات.

المحور الثاني: الخطة الإعلامية والدعائية لتضليل الرأي العام.

المحور الثالث: المخططات العسكرية والسياسية⁽²⁾.

وفي هذا تضافرت الجهود بين طيات المجتمع الجزائري من قيادات وزعماء الثورة في حسم هذه القضية، وتوحيد الوحدة الترابية للقطر الجزائري، في حين ذلك أصبحت للصحراء وزارة تنفرد بشؤونها بدءا من سنة 1957م وأصبحت لهذه الوزارة استقلالية مالية منذ سنة 1958م، وكان أول غلاف مالي خصص لها بلغ 10478 مليون فرنك وذلك سنة 1818م⁽³⁾.

وعرفانا لجهود الشيخ أحمد التجاني التماسيني رضي الله عنه في قضية فصل الصحراء يذكر الشيخ إبراهيم بيوض في إحدى أقواله أنه قال: "في خريف 1960 انعقدت دورة المجلس العمالي في ورقلة، وفي يوم من أيامها أعلن الرئيس حمزة أوبوكر أن جلسة المساء تون سرية، فاجتمع النواب كلهم مسلمون وفرنسيون في الساعة المعينة، فافتتح الكلام وأخبر عن اجتماعه بالجنرال ديغول، وما جرى بينهما من حديث حول الصحراء وفصلها، وأطال في ذلك، ثم

1- المرجع نفسه.

2- نصر الدين مصمودي: الولاية السادسة التاريخية في مواجهة الإستراتيجية الفرنسية لفصل الصحراء الجزائرية في عهد الجنرال ديغول (1958-1962) مجلة علوم الإنسان والمجتمع، العدد 19، 2016م، جامعة بسكرة، الجزائر، ص260.

3- محمد رشدي جرایة: دور الشيخ أحمد التجاني التماسيني في الحفاظ على وحدة التراب الوطني الجزائري، مرجع سابق.

طلب رأي النواب فوجموا ساعة، فالتفت إلى قاضي قمار، فقال: ما رأيك يا شيخ قاضي، فقال: إنني لا أستطيع أن أتكلم، ثم التفت إلى الشيخ أحمد التجاني فتكلم بكلام حسن شرح فيه باختصار خطورة الموقف، وأنه لا ضمان ولا أمان من تطورات الأحوال، وضرب المثل بقضية سلطان المغرب وابن عرفة وما آل إليه أمر المغرب... إلخ وتكلم آخرون كلاما مضطربا ملتويا خاليا من الفائدة"، ثم تكلم إبراهيم بيوض وذكر أن المجلس الاقتصادي بحث ينظر في ميزانية العمالة ولا يحق له التكلم باسم الأمة في أمر سياسي هام خطير، وتكلم بكلام جميل، وفي الأخير صفق النواب ونادوا هذا كلامنا جميعا، واخفق الاجتماع، وكانت ضربة قاضية للفصل والانفصاليين⁽¹⁾.

وتعقبيا على هذا اللقاء والمجلس قيل أنه "إثر انعقاد مؤتمر ورقلة في خريف 1960، في الأصل كان ملتقى عادي يجمع نواب المناطق الصحراوية، هدفه الظاهر مناقشة الميزانية المالية لسنة 1961 والمشاريع العمرانية والصناعية والفلاحية لمنطقة الصحراء، وفي آخر المناقشات العادية تحول اللقاء إلى مؤتمر سياسي، بحيث طلب من الحاضرين إعلان آرائهم في قضية مصير الصحراء، وأعطيت الكلمة للحاضرين وكان للشيخ سيدي أحمد التجاني في هذا اليوم المشهود موقفا تاريخيا جليا تشهد له به الأمة وكفى بالله شهيدا"⁽²⁾.

ومن خلال المواقف الجهادية للزاوية ورجالها تجاه خدمة ودعم الثورة والحركة الوطنية "يبقى الموقف المشهور التاريخي لشيخ الزاوية ب"تماسين" رضي الله عنه من قضية فصل الصحراء، والذي كان له فيها الدور الرئيسي، حينها كان عضوا في المجلس العام ب"الواحات" (المجلس الولائي)، وهو تصديه لإحباط مناورات المحتلين، وسدّ الذرائع في وجوههم. وقد ذكر جانبا من هذا الموقف الشيخ إبراهيم بيوض في كتابه "أعمالي في الثورة"، لكن القول الحاسم جاء في جريدة "المجاهد" لسان حال الثورة آنذاك، في العدد رقم 89 بتاريخ 16/01/1962 والذي أشار: «أنّ فرنسا سعت بواسطة أعاونها للحصول على تأييد الشخصيات المحلية الصحراوية من أجل فصل الصحراء، واستعملت الإغراءات والتهديدات، ولكنها لم تحقق هدفها، فطلبت الأوساط الاستعمارية المكلفة بهذه المحاولة القبض على أحد رؤساء الزاوية التجانية»، وهكذا يتبين بكل وضوح موقف الزاوية من قضية فصل الصحراء."⁽³⁾

الخاتمة

1- محمد بشسر طهراوي: الشيخ أحمد التجاني التماسيني حياته ونضاله (1898-1962)، مرجع سابق، ص 139.

2- المرجع نفسه، ص 139، 140.

3- عبد المالك التجاني: دور التجانية في الثورة التحريرية بالجزائر، مرجع سابق.

ومن خلال هذا العرض الوجيز لتاريخ رجال التصوف حول ترسيخ قيم ومعالـم الإسلام في ظروف تضاربت فيها القوى المسيطرة على الدول العربية، فقد كان سعيهم المنشود في المحافظة على الهوية العربية الدينية والوطنية، وقد ظلت الطرق الصوفية في الحركة الجهادية والدينية صرح تعليمي مستمد منهجه وقيمه من فيض الوحي القرآني بلسان عربي مبين والسنة النبوية المطهرة.

ومما لا شك فيه أن رجال الطرق الصوفية والزوايا كان لهم دور ريادي في التصدي ضد الاحتلال الفرنسي خلال الفترة 1830م-1962م، فقد شاركوا في عدة معارك وانتفاضات ومنها ثورة الشيخ المقراني والحداد، ولالا فاطمة نسومر ومقاومة الأمير عبد القادر وهذا ما يدل على سعي رجال التصوف في خدمة الإسلام وقيمه ومبادئه التي تعني بحب الوطن والمحافظة عليه، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركانه.